الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى في سورة الإخلاص

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَد (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) [الإخلاص:٤]).

(الشرح)

قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ): المشار إليه: الجمع بين النفي والإثبات في وصف الله تعالى.

قوله: (سُورَةِ الإِخْلاَصِ): سميت بهذا الاسم؛ لأنها أخلصت في صفة الرحمن، وقيل: لأنها تخلص قارئها من الشرك؛ فإذا قرأ الإنسان سورة الإخلاص بيقين، تجرد قلبه من غير الله. ولهذا أرشد النبي، صلى الله عليه وسلم، من عرض له شيء من الشبهات ووساوس الشيطان أن يقرأها؛ فعن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–: (لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ)[1]، وفي رواية: (فإذا قالوا ذلك فقولوا: اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ)[2].

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: رقم (١٣٤)، واللفظ له.

[2] أخرجه أبو داود: رقم (٤٧٢٢)، والنسائي في الكبرى: رقم (١٠٤٢٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

فإذا طاف بنفسك طائف من الشبهات المتعلقة بذات الباري، سبحانه وتعالى، فافزع إلى هذه السورة، فإنها تخلص قلبك من هذه الخطرات الشيطانية.

قوله: (الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ، اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ)[1]، وقال في حديثٍ آخر: (احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)[2]، فاجتمع الناس، ظنوا أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سيتلو عليهم سورًا طوالًا، فقرأ عليهم سورة الإخلاص، وقال: (إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ).

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن أن القرآن العظيم، إما عقائد، أو أحكام، أو أخبار؛ فكانت سورة الإخلاص تتعلق بالثلث الأول، بل هي أساسه وأصله، فلهذا كانت تعدل ثلث القرآن؛ فجميع ما في القرآن من عقائد يؤول إليها؛ لأن مرجعه التوحيد العلمي.

وهي تعدل ثلث القرآن في الأجر والثواب، لا في الإجزاء، فلو أن إنسانًا نذر أن يختم القرآن، فقال: أقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات، فأكون وفيت بنذري؛ فيقال: كلا، هي لا تعدله في الإجزاء؛ لا يجزئك إلا أن تقرأ ما بين دفتي المصحف؛ لكنها تعدله في الثواب والأجر، كما أخبر النبي، صلى الله عليه

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٥٠١٣).

[2] أخرجه مسلم: رقم (٨١٢).

وسلم، وهكذا أمثالها من النصوص، كقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (مَـــنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مِرَارٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ) [(1)]، فلو قال من عليه كفارة قتل خطأ، وكفارة ظهار، وكفارة يمين، وكفارة جماع في نهـــار رمضان: أقولها عشر مرات، وتبرأ ذمتي؛ قيل: لا تجزؤك! فإنها تعـــدلها فـــي الأجر، لا في الإجزاء؛ وعلى هذا قس.

قوله: (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**): فيها إثبات وحدانية الله، فالله أحد، وإثبات أن (الأحد) من الأسماء الحسنى، فيجوز أن يُعبّد به، فنقول: عبد الأحد؛ وقد ورد في السنة معرفًا بالألف واللام، فعن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ الأسلمي، عَنْ أَبِيه، أَنَّ رَسُولَ اللَّه، صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ، سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ)[2]، وعن مِحْجَنِ بْنَ الْأَدْرَعِ، حَدَّثَهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ، وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللَّهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ: فَقَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ» ثَلَاثًا)[3].

---

[1]) أخرجه مسلم: رقم (٢٦٩٣).

[2] أخرجه أبو داود: رقم (١٤٩٣)، والترمذي: رقم (٣٤٧٥)، وابن ماجة: رقم (٣٨٥٧)، وصححه الألباني.

[3] أخرجه أبو داود: رقم (٩٨٥)، والنسائي: رقم (١٣٠١)، وأحمد: رقم (١٨٩٧٤)، وصححه الألباني.

قوله: (اللَّهُ الصَّمَد): فيها إثبات صمدية الله، سبحانه وتعالى، وقد قيل في معناها أقوال، لا تعارض بينها:

القول الأول: الصمد: من تصمد إليه الخلائق بحاجاتها؛ بمعنى أنها تتوجه إليه بدعائها ومسألتها؛ تأمل حال الناس يوم عرفة؛ الجميع رافعٌ يديه يبكي، ويسأل ويتضرع؛ يسأل الله تعالى طلبته، والله صمدٌ؛ يسمع جميع الدعوات، على اختلاف اللغات واللهجات، لمختلف الحاجات، ويجيب، سبحانه وبحمده.

القول الثاني: الذي لا جوف له؛ لأن الصمد بمعنى الصمت، ووجه ذلك أن الله، سبحانه وبحمده، غنيٌ عما سواه، أما الذي له جوف؛ ففيه داخل وخارج، فيكون غير مستغنٍ. أما الرب تعالى فإنه صمد؛ لا يحتاج إلى شيء يدخل، وشيء يخرج؛ لكمال غناه، بخلاف الآدميين؛ فإنهم يحتاجون إلى أفواهٍ يدخل منها الطعام والشراب، وإلى أدبار تخرج منها الفضلات؛ لكمال افتقارهم، لهذا ورد في الحديث: (لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ)[1].

القول الثالث: السيد الشريف، الذي بلغ الغاية في سؤدده وشرفه.

ولا تعارض بين هذه الأقوال، كما أسلفنا، فالله تعالى هو السيد الشريف، الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها، وهو غنيٌ عما سواه، سبحانه وبحمده.

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٦١١).

قوله: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ): فيها نفي الولادة من الجهتين؛ من أعلى ومن أدنى؛ أي نفى التسلسل من جهة الأبوة، ومن جهة البنوة؛ فهو سبحانه لم يلد، فلا يتسلسل منه مولود، كما ادعى اليهود بقولهم: عزير ابن الله، والنصارى بقولهم: المسيح ابن الله، ومشركو العرب بقولهم: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذا وهمٌ، ويطرأ على بعض العقول، فتظن أن من كمال الله أن يكون له ولد؛ قياسًا على المخلوقين، والأمر ليس كذلك؛ فالمخلوق يحتاج إلى الولد؛ لأنه في حال كبره وضعفه يحتاج إلى من يعينه، أما الرب، سبحانه، فهو غنيٌّ عما سواه؛ فلا يحتاج إلى الولد، وأيضًا، فإن من شأن الولد أن يكون شبيهًا بأبيه، والله تعالى لا ند له، ولا نظير، ولا مثيل؛ قال تعالى:{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]؛ فلو كان له- وحاشاه- ولد، لكان من جنس أبيه، فلكمال وحدانيته نزه الله نفسه عن الولد؛ قال تعالى: {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} [الفرقان: ٢]، {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: ١١١]، {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} [المؤمنون: ٩١]، وعاب الله تعالى على مدّعي ذلك فقال: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: ٣٠]، وذلك أن الأمم الكافرة؛ من الهندوس، والبوذيين، واليونان، والرومان، وغيرهم، قالوا بالبنوة؛ فضاهاهم كفرة أهل الكتاب.

كما أنه سبحانه "لم يولد"؛ فليس متسلسلًا عن غيره، ولا أعلم قائلًا بأن الله تعالى متولدٌ عن كذا وكذا، لكن ذلك في الآية لاستغراق القسمة، ونفي التسلسل من الجهتين، لكي لا يبقى باقية واحتمال يتنافى مع وحدانية الله.

قوله: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ): فيها نفي المكافئ والعدل عن الله، وأحد نكرة في سياق النفي فأفادت العموم.

فقد جمعت هذه السورة العظيمة بين النفي والإثبات في صفة الرب تعالى؛ فآيتان في الإثبات، وآيتان في النفي، وتضمنت تعظيم الرب، وتنزيهه، والتعريف به؛ فينبغي الإكثار من تلاوتها، وقد ورد فيها فضائل خاصة، مبسوطة في كتب التفسير، والسنة.

الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى في آية الكرسي

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: ٢٥٥]، {وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}: أي لا يكرثه ولا يثقله، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلةٍ، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح).

(الشرح)

قوله: (وما وصف به نفسه): الواو عاطفة على قوله: وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص.

قوله: (في أعظم آية في كتابه): في الحديث الصحيح أن النبي، صلى الله عليه وسلم، سأل أبي بن كعب، رضي الله عنه، وهو أقرأ الصحابة للقرآن، فقال له: (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)[١]، يعني هنيئًا لك العلم أبا المنذر.

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٨١٠).

وهذه الآية العظيمة مكونة من عشر جمل، تتراوح بين النفي والإثبات.

قوله: {اللَّهُ}: الله هو الاسم الأعظم، الذي تؤول إليه جميع الأسماء، وهو أعرف المعارف، وقد تقدم بيان معناه، واشتقاقه.

قوله: {لا إله إلا هو}: نفيٌ وإثبات؛ (فلا إله) نفي الشريك عن الله تعالى؛ (إلا الله) إثبات الألوهية لله تعالى، فقد نفى الله تعالى كل آلهةٍ سواه، وأثبت الألوهية له وحده؛ فهذه الجملة متضمنة للجمع بين النفي والإثبات.

قوله: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ}: إثبات اسمين كريمين، عظيمين، من أسماء الله الحسنى:

(**الحي**): من له الحياة التامة الكاملة، التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، وقد يطلق اسم الحي على المخلوق من الآدميين، والحيوانات، والنباتات؛ كما في قوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}[يونس: ٣١]، لكن فرقٌ بين حياة وحياة؛ فحياة المخلوق مسبوقة بعدم؛ قال تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} [مريم: ٩]، ويلحقها فناء؛ قال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]، وهو ينادي يوم القيامة: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: ١٦]، فلا يجيبه أحد، فيجيب الجبار نفسه: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: ١٦]. أما حياة الربِ، سبحانه، فهي حياةٌ كاملةٌ، تامةٌ، موصوفةٌ بالسمع، والبصر، والعلم، والكلام، والفعل، والقدرة؛ غير مسبوقة بعدم، ولا يلحقها فناء.

(**القيوم**): أي القائم بنفسه، المقيم لغيره، الغنيٌ عما سواه؛ فهو لا يستكثر بخلقه من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة، سبحانه وبحمده، ولا قيام لغيره إلا به؛ فالعرش،

فما دونه، لا قيام لها إلا بالله؛ قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ} [الروم: ٢٥]، وقال: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا} [فاطر: ٤١].

وقد ورد هذان الاسمان مقترنين في ثلاثة مواضع في القرآن:

الموضع الأول: آية الكرسي.

الموضع الثاني: مستهل سورة آل عمران: {الم (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: ١، ٢].

الموضع الثالث: في سورة طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: ١١١].

قال بعض أهل العلم: إن هذين الاسمين هما اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؛ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: (كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي الْحَلْقَةِ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي. فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ جَلَسَ وَتَشَهَّدَ، ثُمَّ دَعَا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟"، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى")[1].

---

[1] أخرجه أحمد: رقم (١٢٦١١)، وأبو داود: رقم (١٤٩٥)، والترمذي: رقم (٣٥٤٤)، والنسائي: رقم (١٣٠٠). وصححه الألباني.

وقيل: إن سبب كونهما اسم الله الأعظم، أنهما دالان على مجموع الصفات الذاتية، والفعلية؛ فاسمه {الحي} يدل على اتصافه بالصفات الذاتية الملازمة لذاته، سبحانه؛ فحياته كاملة؛ فيها جميع الصفات الحياتية؛ من السمع، والبصر، والإرادة، والعلم، والقدرة، والكلام، وغير ذلك، واسمه {القيوم} يدل على صفاته الفعلية؛ فهو سبحانه الفعال، الخلاق، الرزاق؛ فاجتماع هذين الاسمين يدل على كمال الله تعالى في أسمائه، وصفاته؛ الذاتية، والفعلية.

قوله: {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}: نفى الله تعالى عن نفسه وصفين:

السِّنَة: وهي النعاس، وهو مقدمة النوم.

والنوم: وهو ما يكون معه غياب الوعي والإدراك.

فالله تعالى قد نزه نفسه عن النوم، ومقدماته؛ قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (إِنّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ)[1]؛ لأن النوم ناتج عن ضعف؛ فمهما أرِق الإنسان، لا بد أن ينام؛ لا بد أن يتهاوى بدنه، ويضعف ذهنه؛ فيخلد إلى الراحة، شاء أم أبى، لكن الربّ، عز وجل، منزهٌ عن هذا الضعف.

قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}: تضمنت هذه الجملة إثبات الملك المطلق لله، لكل ما في السماوات، وما في الأرض، وكل ملك أضيف إلى غيره فهو ملك نسبي، محدود مؤقت؛ قال تعالى: {إِنّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: ٤٠]، وقال: {قُلِ ادْعُوا الّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ لا

[1] أخرجه مسلم: رقم (١٧٩).

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢].

قوله: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}: هذا الاستفهام يراد به النفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه؛ فتضمنت هذه الجملة نفي الشفاعة عنده إلا بإذنه؛ فلابد في الشفاعة المثبتة من إذن الله للشافع، كما في هذه الجملة، ورضاه عن المشفوع له؛ المذكور في قول الله تعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]، وقد جمع الله بين الشرطين في قوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦].

فهذا معنى قوله: {قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا} [الزمر: ٤٤]؛ فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا؛ الشفاعة عند ملوك الدنيا تقع إما رغبةً، أو رهبة؛ إما لكون المشفوع عنده يريد أن يستميل الشافع، ويتخذ عنده يدًا، أو ليدفع أذاه وسخطه، أما الله، عز وجل، فغنيٌ عن خلقه، لا يفتقر إلى موالاة أحد، ولا يستدفع شر أحد، كما قال سبحانه وبحمده: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ} [الإسراء: ١١١].

قوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}: إثبات كمال العلم لله، أي: ما استقبله الناس وما استدبروه، وقيل بالعكس، والمقصود أن علم الله تعالى محيط بكل شيء؛ فقد علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، بل وما لم يكن كيف لو كان يكون.

قوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}: هذه جملة نفي، نفى أن ينال أحدٌ من علمه إلا بالقدر الذي يأذن به، كما في قصة موسى مع الخضر، قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الخَضِرُ يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ)[1]- تبارك الله! قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥]؛ وتأسف حين تسمع بعض المتهوكين السفهاء يقول: تمكن العلم الآن من استكشاف كل شيء! فكل هذه العلوم والمكتشفات وأضعافها ليست في علم الله إلا كنقطة من بحر؛ فلا يذهب بك الوهل إلى أن هذا كان فيما مضى، وأما الآن فقد اختلف الحال!

قوله: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}: تضمنت إثبات الكرسي، وقد فسره ابن عباس -رضي الله عنهما-بأنه موضع القدمين، ومثل هذا لا يقوله الصحابي إلا عن توقيف، فله حكم المرفوع، فيكون تلقاه عن رسول، الله صلى الله عليه وسلم، وقد جاء في حديث: (مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ)[2].

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٣٤٠١)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٣٨٠).

[2] أخرجه ابن حبان في صحيحه: رقم (٣٦١).

قوله: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}: تضمنت نفي العجز والضعف عن الله تعالى، وقد فسرها المصنف بقوله: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ؛ فقد يتوهم متوهم أن هذا مدعاة للتعب والكلال؛ فنفى الله عن نفسه ذلك؛ كما قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: ٣٨]، خلافًا لما ادعته يهود (في العهد القديم)، في (سفر التكوين)، إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع؛ تعالى الله عما يقولون.

قوله: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}: في هذه الجملة إثبات اسمين عظيمين:

(العلي): فله العلو المطلق، والعلو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو الذات: وهو أن الله تعالى بذاته فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيءٌ منه، ولا يجوز أن يعتقد أحد أن الله في كل مكان؛ كالهواء والنور؛ كما يقول بعض الناس: ربنا في كل مكان! هذا غير صحيح؛ بل علمه في كل مكان، أما هو بذاته، سبحانه وبحمده، فمنزهٌ عن مخالطة خلقه، لا يمكن أن يحويه شيءٌ من مخلوقاته، بل له العلو المطلق، سبحانه وتعالى، في ذاته، وهو على علوه قريب، يعلم، ويسمع، ويرى، ويدبر الأمر، ويكشف الضر، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته، وسيأتي له مزيد بيان في موضعه.

النوع الثاني: علو القدر: والمقصود به كمال صفاته، فكل وصف كمال فهو مُستحقٌ لله؛ {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الروم: ٢٧].

النوع الثالث: علو القهر: فقد خضع له كل شيء؛ قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: ١٨، ٦١]، فقد قهر جميع مخلوقاته، فلا شيء يخرج عن ملكه، وهذان النوعان الأخيران لم ينازع فيهما أحد من أهل القبلة، وإنما وقع التنازع في النوع الأول؛ وهو علو الذات، كما سيأتي.

قوله: {الْعَظِيمُ}: تضمنت إثبات اسم الله العظيم، وما تضمنه من صفة العظمة، والله تعالى عظيمٌ في ذاته، وأسمائه، وصفاته؛ لا تحيط به العقول، ولا تبلغه الأوهام.

قوله: (وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ): قد دلّ على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ

شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»)[١].

فتَبيّن أن آية الكرسي قد جمعت بين النفي والإثبات في صفة الرحمن.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٢٣١١).